((الدِّرَاسَاتُ الشَّرْقِيَّةُ المَسِيحِيَّةُ: جِسْرٌ لِفَهْمٍ أَفْضَلَ لِلإِسْلَامِ فِي السِّيَاقِ الحَالِي))

تسبَّبَتْ أحداثُ العُنْفِ الأخيرَةِ مِنْ جَانبِ بعضِ الجِهَادِيِّينَ المُتطرِّفِينَ ضِدَّ الأقلِّيَّاتِ المسيحيَّةِ فِي العِرَاقِ وسُوريَا ومِصرَ فِي إثارَةِ مشاعِرِ الرَّأيِ العَامِ الأوروبيِّ، ويرَى بعضُ المرَاقبِينَ أنَّ الأقلِّيَّاتِ المسيحيَّةَ يتمُّ اضطهادُهَا فِي الدُّولِ المسلمَةِ، وأنَّ تاريخَ تلكَ الدُّولِ يَدُلُّ علَى عدَمِ قُدْرةِ المجتمعَاتِ المسلمَةِ علَى استيعَابِ الأخرِينَ.

وهذِهِ الأفكارُ يتمُّ استغلالُهَا الآنَ منْ جانبِ الجماعاتِ السِّياسيَّةِ اليمِينيَّةِ الَّتِي تستغِلُّ قضيَّةَ المسيحيِّينَ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ لتبرِّرَ ظاهرَةَ الخوفِ منَ الإسلَامِ وللتَّسبُّبِ فِي مواجهَةٍ معَ العالَمِ الإسلامِيِّ. هذِهِ الجماعَاتُ الَّتِي تتسبَّبُ فِي الضَّرَرِ للمسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ لَا تتردَّدُ فِي تزيينِ خطابَاتِهَا بلهجَةِ الحمَلَاتِ الصَّليبيَّةِ الجديدةِ .

وأنَا شخصيًّا فِي (بُرُوكْسِلَ) رئيسًا لجمعيَّةٍ تُسَمَّى ((التَّضامُنُ معَ الشَّرقِ)) والَّتِي تهدِفُ إلَى تسليطِ الضَّوءِ علَى المجتمعَات المسيحيَّةِ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ العربِيِّ المسلمِ ودعمِهَا. وجمعيَّتُنَا اليومَ علَى وَعْيٍ بالأفعَالِ المغويةِ منْ جانبِ بعضِ الدَّوائِرِ السِّياسيَّةِ اليَسارِيَّةِ الَّتِي تقومُ باستغلَالِ المسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ لتبريرِ العدوَانِ المُتَنَامِي علَى الإسلامِ. لسُوءِ الحظِّ، استطاعَتْ هذِهِ المنظَّمَاتُ السِّيَاسيَّةُ إغْرَاءَ بعضِ المسيحِيِّينَ الشَّرقيِّينَ علَى العيشِ فِي أوروبَّا، وهؤلاءِ المسيحيُّونَ تَبَنَّوا نفسَ طريقتِهِم وقامُوا بتصويرِ الإسلَامِ بصورةٍ شيطانيَّةٍ، وسَاهمُوا فِي رَسْمِ صورَةٍ مُرَوِّعَةٍ للعلاقَاتِ بينَ الأديانِ فِي بلادِهِم، ولمْ يتردَّدُوا فِي الاستشهَادِ بتارِيخِهِم علَى أنَّهُم شَهدُوا عذابًا وعاشُوا سلسلَةً مُتواصِلَةً منَ الاضطهَادِ.

ومنَ المهمِّ بالنِّسبةِ للمؤرِّخينَ أنْ يقُومُوا بِدَحْضِ هذِهِ الصُّورَةِ المُشوَّهَةِ للمَاضِي، وأنْ يُظهِرُوا أنَّهُ علَى العكسِ منْ ذلِكَ، فإنَّ العلاقاتِ بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ قدْ شهدَتْ بعضَ الفَتَرَاتِ الإيجابِيَّةِ جِدًّا، وعليهِمْ أنْ يُشِيرُوا إلَى إمكانيَّةِ اشتِرَاكِ المسيحيَّةِ والإسلامِ فِي حِوَارٍ صريحٍ يتَّسِمُ بالاحترَامِ. وفِي نفسِ الوقتِ علينَا أنْ نؤكِّدَ علَى التَّقارُبِ الثَّقافِيِّ والإنسانيِّ بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ منذُ قُرُونٍ قَدِيمَةٍ.

وَبِفَضْلِ أعمالٍ بحثِيَّةٍ لعُلَمَاءَ مثلِ: نُورْمَن دَانِييل Norman Daniel، وَبِرْنَارْدِ لُوِيس Bernard Lewis، وَرِيتْشَارْدِ سُوذِرْن richard

Southern، وَجُون طُولَان John Tolan، والعَدِيدِ منْ غيرِهِمْ، ولدَينَا الآنَ تحتَ تصَرُّفِنَا مخزُونٌ كبيرٌ منَ الوثَائِقِ التَّاريخيَّةِ للعلَاقَةِ بينَ الإسلامِ والمسيحيَّةِ.

ومنَ الوَاضِحِ أنَّ أوروبَّا قدْ تجاهَلَتِ الإسلامَ لوقتٍ طويلٍ جدًّا، وأنَّ المسيحيِّينَ قدْ تشبَّعُوا بأفكارٍ سلبيَّةٍ جدًّا عنِ الدِّينِ الإسلامِيِّ والثَّقافَةِ الإسلاميَّةِ. وترجعُ الصُّورةُ السَّلبيَّةُ عنِ العلاقَاتِ بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ إلَى تراثٍ قديمٍ؛ حيثُ بدأَتْ معَ الكُتَّابِ البيزنطِيِّينَ ومؤرِّخِي القُرُونِ الوسْطَى الغربيِّينَ الَّذِينَ كتبُوا عنِ الحَمَلَاتِ الصليبِيَّةِ. وقدْ تأصَّلَتْ الصُّورةُ المُتَوَارَثَةُ عنِ الإسلامِ منْ أوروبَّا فِي القُرُونِ الوُسْطَى فِي الثَّقافَةِ البيزنطيَّةِ، وبدأَ هذَا التَّوارُثُ السَّلبيُّ معَ كِتَابَاتِ جُون الدِّمشقِيِّ فِي القرنِ الثَّامنِ، ولعبَ مؤلِّفُونَ آخرُونَ دورًا مهمًّا فِي نَشْرِ الصُّورَةِ السَّلبيَّةِ منْ أمثَالِ: جِين زِيجَابِين Jean Zigabene، وَالبطريركِ إيثم iarch Patr Euthym فِي القرنِ العَاشِرِ، وَنِيستَاس البيزنطيِّ Nicetas of Byzantium (المُتَوَفَّى فِي عامِ ١٢١٦م).

وقدْ تركَّزَ النَّقدُ بصُورةٍ أساسيَّةٍ علَى شخصِ النَّبيِّ محمَّدٍ الَّذِي تَمَّ تشويهُ سُمْعَتِهِ كُلِّيَّةً وتصويرُهُ بصورَةٍ شيطانيَّةٍ تقريبًا. وحتَّى عندَمَا يَضْطَرُّ المؤلِّفُونَ إلَى الاعترافِ بأنَّ بعضَ عَناصِرِ محدَّدَةٍ منْ أسلُوبِ الدَّعوةِ لدَى النَّبِيِّ كانَتْ حَسَنَةً، فإنَّهُمْ يحاولُونَ نسبةَ أصلِهَا إلَى مصادرَ مسيحيَّةٍ مزعُومَةٍ يستخدمُهَا محمَّدٌ. وبحسبِ بعضِ العلمَاءِ، فإنَّ هذَا الازدرَاءَ البيزنطِيَّ القَاسِي لِشَخْصِ محمَّدٍ قدْ أدَّى بدَورِهِ إلَى تقويَّةِ مركزِ محمَّدٍ فِي العالَمِ الإسلامِيِّ، وإلَى رغبةٍ مشرُوعَةٍ فِي الدِّفَاعِ عنْ ذِكْرَاهُ وَسُمْعَتِهِ.

وقدْ قامَتْ بِيزَنْطَةُ بنقْلِ هذهِ الصُّورةِ المُقِيتَةِ عنِ الإسلامِ للغَربِ، وانتقلَتْ عبرَ إسبانيَا منذُ القرنِ التَّاسِعِ فصاعدًا، فعلَى سبيلِ المثالِ، فإنَّ حقيقَةَ أنَّ محمَّدًا تُوفِّي فِي العامِ ٦٦٦ منَ العصرِ الأيبيرِي (وهُوَ زعمٌ خاطئٌ؛ لأنَّ العامَ ٦٦٦ فِي العصرِ الإسبانِيِّ يوافقُ عامَ ٦٢٨م) يتمُّ تفسيرُهَا كدلالَةٍ علَى أنَّ محمدًا شخصٌ لاسلطوِيّ؛ لأن رقم(٦٦٦ هُوَ رقمُ الوحشِ فِي الكتَابِ المسيحيِّ المقدَّسِ).

ويزدادُ الأمرُ سُوءًا فِي نهايةِ القرنِ الحادِي عشرَ وبدايةِ القرنِ الثَّانِي عشرَ؛ حيثُ نرَى النُّصوصَ الَّتِي ظهرتْ حولَ الإسلَامِ فِي أنحَاءٍ أُخْرَى منْ أوروبَّا، يشتَمِلُ عددٌ كبيرٌ منهَا علَى أساطيرَ وإشاعاتٍ منتشرَةٍ عنْ محمَّدٍ.

إنَّهُمْ ينتقدُونَهُ ويزعمُونَ أنَّهُ يميلُ إلَى الفُسوقِ الجِنْسيِّ وإلَى العنفِ والخِدَاعِ. ونحنُ نعلمُ عنْ تلكَ الأسطُورَةِ غيرِ العقلانِيَّةِ عنْ حمامَةِ محمَّدٍ الَّتِي كانتْ تلتقِطُ الحَبَّ منْ أُذُنِهِ ليجعَلَ النَّاسَ يؤمنُونَ أنَّهُ قدْ أُوحِيَ بِهِ منْ عندِ الرُّوحِ القُدُسِ عندَمَا كتَبَ القرآنَ الكريمَ.

كمَا يتمُّ استغلالُ قصَّةِ العلاقَةِ بينَ النبِيِّ والرَّاهبِ النّسطوريِّ بُحَيْرَا منْ جانبِ العدِيدِ منَ المؤلِّفينَ الَّذينَ يصوِّرُونَ هذِهِ الشَّخصيَّةَ علَى أنَّهُ كانَ راهبًا معزولًا ومطرودًا منْ كنيسَتِهِ. ويزعمُ البعضُ أنَّهُ أرادَ أنْ يصبِحَ البَابَا، إلَّا أنَّهُ أُصِيبَ بالإحباطِ بسبَبِ عدمِ انتخَابِهِ رئيسًا للكنيسَةِ الكاثوليكيَّةِ، ولهذَا لجأَ إلَى الجزيرَةِ العربيَّةِ؛ حيثُ أصبحَ محمَّدٌ تلميذًا لهُ. ويُذكَرُ أيضًا أنَّ القصيدَةَ الملحمِيَّةَ ((أُغنِيَةَ رُونَالد)) تزعمُ أنَّ المسلمِينَ كفارٌ يعبدُونَ أَبُولُّو ومحمَّدًا وإلهًا غامضًا يُسَمَّى ((تيرفَاجَان)).

كُلُّ هذِهِ القصصِ الخياليَّةِ الغريبَةِ موجودَةٌ فِي كتَابَاتِ مؤلِّفِينَ منْ أمثَالِ إمبريكُون الماينزِي Embricon of Mainz (المتوَفَّى فِي عامِ ١١١٢م، وهُوَ مؤلِّفُ A Vita Mahumeti، وجُوثِييه دو كُومبِين" Gauthier de Compiegne مؤلِّفُ An Otia of Machometo (1140)، أوْ فِي تسجيلَاتِ بعضِ المؤرِّخينَ عنِ الحمَلَاتِ الصَّليبيَّةِ مثلِ جُوبِير دو نُوجِيه Guibert de Nogent مؤلِّفُ The Gesta Dei per Francos، والَّذِي أطلَقَ علَى النبيِّ Mathomus وجعلَهُ يعيشُ فِي القرنِ الحادِي عشرَ، أوْ جَاك دو فِيرتِي Jacques de Virty أُسْقُفِ عكَّا بفلسطِينَ أثناءَ الحملَةِ الصَّليبيَّةِ الخامسةِ، وفِي تاريخِ المشرقِ 1220) HistoriaOrientalis).

ولنْ أجِدَ صعوبَةً فِي توضيحِ كيفيَّةِ نقلِ هذِهِ الصُّورَةِ المشوَّهَةِ إلَى الغربِ حتَّى العُصورِ الحديثَةِ كمَا يدلُّ عليهِ كتابُ فُولتِير المعروفُ باللُّغَةِ الفرنسيَّةِ: Le Fanatisme, ou Mahomet le Prophete، والَّذِي يعنِي حرفيًّا ((التَّعصُّبَ، أوِ النبيَّ محمَّدًا))، وهُوَ تِرَاجِيدْيَا مؤلَّفَةٌ منْ خمسةِ فصُولٍ فِي عامِ ١٧٣٦م. وقدْ تمَّ تمثيلُهَا لأولِّ مرَّةٍ فِي لِيلّ Lill فِي ٢٥ أبريلَ ١٧٤١م. وتتناوَلُ المسرحيَّةُ التَّعصُّبَ الدِّينيَّ والخِدَاعَ لخدمَةِ الذَّاتِ، وهِي مبنيَّةٌ علَى واقِعَةٍ فِي سيرَةِ محمَّدٍ، والَّتِي أمرَ فيهَا بقَتْلِ مُنْتَقِدِيهِ. ويصِفُ فُولتِير المسرحيَّةَ علَى أنَّهَا ((مكتوبَةٌ لمعارَضَةِ مؤسِّسِ مذهَبٍ كاذِبٍ وَبَرْبَرِيٍّ)).

إنَّنِي أوَدُّ أنْ أُعْطِيَ توضيحًا مؤلمًا لهذَا المورُوثِ السَّلبِيِّ بشكلٍ فاضِحٍ، فاللَّهجَةُ المستخدَمَةُ فِي مَوطِنِي- إقليمِ هينُوتَ Hainaut البِلجِيكِيِّ- هِيَ

اللَّهجَةُ البيكارديَّةُ وفيهَا كلمَةُ scarecrow (الفزَّاعَةُ أوْ خيالُ المآتَةِ) تعنِي: "mahoumeud gardin" أيْ كقولِنَا: ((محمَّدًا الحديقَةَ))، وهذَا يعكسُ الصُّورةَ المُزرِيَةَ الَّتِي لدينَا عنِ النَّبيِّ، حتَّى إنَّنَا نصوغُ هذَا التَّعبيرَ المزدرِي. وظلَّ هذَا الوضعُ قائمًا حتَّى القرنِ التَّاسعِ عشرَ وظهُورِ النَّقدِ التَّاريخيِّ حينَ بدأَتْ صورةٌ أكثرَ موضوعيَّةً عنِ الإسلامِ ومؤسِّسِهِ تظهرُ فِي الأدبياتِ الأوروبيَّةِ.

ولحُسْنِ الحظِّ كانَ هناكَ - أحيانًا وقديمًا جدًّا - كُتَّابٌ أكثرَ موضوعيَّةً وإيجابيَّةً مثلُ رَاوُول جلابِر Raoul Glaber الَّذِي دَوَّنَ فِي تسجيلاتِهِ التَّاريخيَّةِ فِي القرنِ الحادِي عشرَ أنَّ المسلمينَ يَعتَبِرُونَ أنَّ محمَّدًا هُوَ المذكورُ فِي نُبُوءَةِ التَّوراةِ، وأنَّهُمْ منْ نَسْلِ إسماعِيلَ، وهذَا الاتِّجَاهُ يتشابَهُ معَ الطَّريقَةِ الَّتِي تعامَلَ بهَا معَ الإسلامِ فِي القرنِ الماضِي المسيحيُّ الشَّرقيُّ رئيسُ كنيسةِ ميزوبوتوميَا النّسطُورِيَّةِ كَاثوليكُ تِيمُوثِي Catholicos Timothy فِي حِوارٍ معَ الخليفَةِ المَهْدِيِّ. فقدْ رأَى محمدًا بوصفِهِ نبيًّا يتسَاوَى معَ أنبياءِ العهدِ القدِيمِ الَّذِينَ ينقلونَ رسالَةَ الإلهِ لِقَومِهِم.

وَتُظْهِرُ شخصيَّةُ تِيمُوثِي وغيرِهِ منْ علماءِ الدِّينِ المسيحيِّينَ الَّذينَ تحاورُوا معَ علماءِ الدِّينِ المسلمِينَ فِي ميزوبوتُوميَا فِي القرنِ التَّاسعِ والعاشِرِ(الَّذينَ قامَ البطريركُ الكلدانيُّ رافايلُ بداوِيد وبينيدِيكتُ لاندرُون فِي فرنسَا بإجرَاءِ دراساتٍ مكثَّفَةٍ عنهُمْ) أنَّ مسيحيِّي الشَّرقِ الأدنَى الَّذِينَ كانُوا فِي تواصُلٍ مباشرٍ معَ المسلمينَ هُمُ الأجدَرُ علَى إعطاءِ صورةٍ صادقَةٍ وعقلانِيَّةٍ عنِ الإسلَامِ.

ولهذَا فليسَ منَ الغريبِ أنْ يقُومَ العدِيدُ منَ الباحثِينَ الأُروبِيِّينَ فِي مجالِ الدِّراسَاتِ المسيحيَّةِ الشَّرقيَّةِ اليومَ بتصحِيحِ الصُّورةِ السَّلبيَّةِ المورُوثَةِ عنِ الإسلَامِ رافضِينَ أيَّ تصويرٍ منهجِيٍّ للمسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ علَى أنَّهُمْ ضحايَا، وهُمْ يوضِّحُونَ أنَّ خِبْرَتَهُمْ فِي التَّعايُشِ معَ الإسلَامِ يمكنُهَا أنْ تُسْهِمَ فِي تيسِيرِ عمليَّةِ الحِوارِ والتَّعايُشِ المشتركِ، بَلْ يجبُ أنْ تؤدِّي إليهِ.

ويُعَدّ بِرْنَارْدُ هِيبِيرجِر Bernard Heyberger مديرُ معهدِ دراسَاتِ الإسلامِ والمجتمعَاتِ فِي العالَمِ الإسلاميِّ (IISMM) خيرَ مثالٍ علَى هذَا الاتِّجَاهِ. وأنَا أُوصِي بالتَّحدِيدِ بقراءَةِ كتَابِهِ Christians in the Middle East: From Compassion to Understanding (المسيحيُّونَ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ: منَ التَّعاطُفِ إلَى التَّفَهُّمِ(الَّذِي صدَرَ فِي بارِيسَ عامَ

٢٠١٣م. ولَا ينفِي هِيبرجِرُ، باعتبَارِهِ مؤرِّخًا جيدًا ومتخصِّصًا فِي علمِ الاجتماعِ، الصُّعوبَاتِ واللَّحظَاتِ المأسَاوِيَّةَ الَّتِي مرَّتْ بهَا العديدُ منَ المجتمعَاتِ المسيحيَّةِ فِي المنطقَةِ كغيرِهَا منَ الأقلِّيَّاتِ الدِّينيَّةِ فِي مناطِقَ أُخرَى، إلَّا أنَّهُ فِي الوقتِ ذاتِهِ يُعِيدُ إلَى الأذهَانِ حقائِقَ تاريخيَّةً، ويُقدِّمُ عناصرَ تحليليَّةً حتَّى يتجَاوَزَ الصُّورَةَ المورُوثَةَ المُتَدَاولَةَ فِي الإعلَامِ، أوْ حتَّى فِي عدَدٍ كبيرٍ منَ الأعمَالِ الَّتِي قدْ تبدُو لأوَّلِ وَهْلَةٍ علميَّةً إلَّا أنَّهَا فِي الحقيقَةِ انفعاليَّةً.

هذهِ الأفكَارُ الثَّابتَةُ والتَّصويرُ الثَّابِتُ للأقلِّيَّاتِ علَى أنَّهُمْ ضحايَا يُوحِي بالفعلِ بطبيعَةِ العلاقَةِ المركَّبَةِ بينَ الغربِ المسيحِيِّ والإسلَامِ. وتُخَاطِبُ مقالةُ هيبرجرَ المتعمِّقَةُ والمليئَةُ بالمعلُومَاتِ القُرَّاءَ الأوربيِّينَ المهتمِّينَ، إلَى جانبِ المسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ الَّذينَ يميلُونَ إلَى الانغلَاقِ علَى أنفسِهِمْ بسبَبِ الفَزَعِ ويُسْهِمُونَ بذلكَ فِي إقْصَائِهِم ويتجَاهَلُونَ تاريخَهُم الحقيقِيَّ وَأَوْجُهَ القُصُورِ فِي ترسِيخِ هويَّتِهِمْ أَوِ إستراتيجيَّاتِ خَلَاصِهِم.

ومنْ بينِ العلمَاءِ الَّذينَ يعملُونَ علَى تصحِيحِ الصُّورَةِ السَّلبيَّةِ للإسلَامِ والعلاقَاتِ بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ، فَإنَّنِي أُقَدِّرُ تحديدًا المسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ أنفُسَهُم الَّذِينَ يعِيشُونَ فِي شَتَاتٍ أُورُوبِيٍّ. وعلَى الأرجَحِ فإنَّ أعمالَهُم ليسَتْ معرُوفَةً للعامَّةِ بشكلٍ كَافٍ، معَ أنَّهَا تستحِقُّ ذلكَ؛ لأنَّ بإمكَانِهِمْ إصلاحَ ذَاكِرَةِ الغَربِ عنِ الإسلَامِ وكذلكَ الحِوَار بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ.

وأوَدُّ فِي البدايَةِ أنْ أشِيرَ كمثَالٍ إلَى البُورُفسُور: عَادِل سِيدَارُوس Adel Sidarouss -الأستاذِ المتفرِّغ بجَامِعَةِ إيفُورَا بالبُرْتُغَالِ. وهُوَ معروفٌ علَى الصَّعيدِ الدَّوليِّ بأنَّهُ واحدٌ منْ أفضلِ المتخصِّصِينَ- إنْ لمْ يكنْ الأفضَلَ- فِي إسهامَاتِ المسيحيِّينَ الأقباطِ فِي الثَّقافةِ العربيَّةِ. وقدْ وُلِدَ بالقاهرَةِ عامَ ١٩٤١م، ولكنَّهُ تعلَّمَ أساسًا بالبرتغَالِ بعدْ أنْ قامَ بجَوْلَاتٍ فِي فرنسَا وألمانيَا.

وكانَ البطريركُ القبطِيُّ الكاثوليكِيُّ كَاردِينَالُ ستِيفَانُو الأوَّل سِيدَارُوس Stephanos I Sidarouss ابْن عمِّهِ الثَّانِي منْ نسلِ معلِّمِ سِيدَارُوس (الكلمةُ العربيَّةُ المقابِلَةُ للكلمةِ اليونانيَّةِ Isidoros) الَّذِي كانَ مسئولًا كبيرًا بارزًا فِي عهدِ سلالَةِ محمَّدِ علِيّ الحاكِمَةِ فِي منتصَفِ القرنِ التَّاسعِ عشرَ. وكانَ ابنُهُ سِيزوستريسُ باشَا Sesostris Pasha- وَالدُ بطريركِ المستقبَلِ- أوَّلَ سفيرٍ مصريٍّ فِي الولاياتِ المتَّحدةِ ثُمَّ فِي الفاتِيكانِ. وبهذَا كانتْ أسرةُ

سِيدارُوس المسيحيَّةُ - الأسرةُ القبطيَّةُ الكاثوليكيَّةُ- مندمجَةً بشكلٍ كاملٍ فِي هذَا الوقتِ فِي فعاليَّاتِ هذَا البلدِ المسلمِ. وكانَ السَّيِّدُ أنيسُ دُوسّ Anis Doss - جَدُّ الأستاذِ سِيدارُوس منْ ناحيَةِ الأمِّ - رئيسًا للمحاكِمِ المختلطَةِ الَّتِي كانتْ تفصِلُ قبلَ ثورةِ عامِ ١٩٥٢م فِي النِّزَاعاتِ الَّتِي كانَتْ تنشَأُ بينَ المواطِنينَ والسُّكَّانِ المقيمِينَ منْ دُوَلٍ مختلِفَةٍ أوْ خَلْفِيَّاتٍ دينيَّةٍ مختلفَةٍ. وبسببِ قصَّةِ أسرةِ عادِل سِيدارُوس كانَ مقدَّرًا لهُ أنْ يهتمَّ بحقيقَةِ العلاقَاتِ بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ فِي تاريخِ مصرَ. وقدْ قامَ بذلكَ بطريقَةٍ رائعةٍ وتخصَّصَ فِي دراسَةِ إسهامَاتِ الأقباطِ فِي الثَّقافةِ العربيَّةِ المسيحيَّةِ وفِي الثَّقافةِ العربيَّةِ المصريَّةِ فِي العصورِ الوسطَى. وعلَى نِطاقٍ أوسعَ، قامَ بإلقَاءِ الضَّوءِ علَى عمليَّةِ الأَقْلَمَةِ الاستثنَائيَّةِ الَّتِي جعلَتِ المسيحيِّينَ فِي مصرَ يتبنَّونَ اللُّغَةَ العربيَّةَ فِي الكنيسَةِ وَكَلُغَةٍ للتَّوَاصُلِ الثَّقَافِيِّ.

وتتعارَضُ أعمالُهُ الرَّئيسَةُ معَ بعضِ اتِّجَاهاتِ التَّيَّارِ المُعَادِي للعرَبِ والَّتِي تَعْتَبِرُ أنَّ انحسَارَ اللُّغَةِ والثَّقافَةِ القبطيَّةِ قدْ تزَامَنَ معَ الفتحِ العربيِّ فِي منتصفِ القرنِ السَّابعِ، إلَّا أنَّهُ قدْ تبيَّنَ أنَّ هذَا الانحسَارَ قدْ حدثَ بعدَ ذلكَ بوقتٍ طويلٍ وأنَّهُ كانَ بسببِ الإشعَاعِ العالمِيِّ للحضارَةِ العربيَّةِ المسلمةِ أكثرَ منْ كونِهِ بسببِ سياسَةِ اضطهَادٍ منَ المسلمِينَ.

خِلالَ القرنِ الأوَّلِ منَ الإسلَامِ فِي مصرَ، ساهَمَ الوجودُ العربيُّ فِي تَقْوِيَةِ الحركةِ الأدبيَّةِ القبطيَّةِ الَّتِي كانتْ قدْ بدأَتْ لِتَوِّهَا بالظُّهُورِ، فأصبحَتِ الحركَاتُ ((القوميَّةُ)) الَّتِي تسعَى إلَى التَّحرُّرِ منْ هيمَنَةِ اللُّغَاتِ والثَّقافةِ اليونانيَّةِ وإلَى دَمْجِ جوهَرِ((التَّجربَةِ الحيَّةِ)) المصريَّةِ بصُورةٍ أكثرَ تعمُّقًا وتنوُّعًا، إلَّا أنَّهَا خَبَتْ وانحَسَرَتْ بعدَ الاحتلَالِ البيزنطِيِّ الَّذِي كانَ يتَّسِمُ بالبدعَةِ والعنفِ فِي أغلبِ أحوالِهِ. ولمْ يكنْ قبلَ القرنِ الخامسِ منَ الهجرَةِ (ووصُولِ العربِ إلَى مصرَ) حينَ أصبحَ التَّحوُّلُ منِ القِبطِيَّةِ إلَى اللُّغةِ العربيَّةِ أمرًا واضحًا (ثبتَ أنَّ حالةَ سِيفيرُوس Severus أسقفِ الأشمونيِّينَ منذُ قرنٍ مضَى حالةٌ فرديَّةٌ).

وهذَا المَسَارُ لَا يختلِفُ عنْ مَسَارِ طبقَاتِ السُّكَّانِ المصريِّينَ الَّذينَ كانُوا يتحوَّلُونَ إلَى الإسلامِ فِي ذلكَ الوقتِ، أوْ عنِ التَّطوُّرِ الطَّبيعِيِّ الَّذِي حدثَ فِي الأدبِ العربيِّ الإسلامِيِّ. وقدِ استغرَقَ الأمرُ وقتًا قبلَ أنْ تصِلَ ثقافَةُ العصرِ العبَّاسيِّ الذَّهبِيِّ العالمِيَّةَ الَّتِي تطوَّرَتْ علَى ضِفَافِ نهرِ الفراتِ فِي قُرُونٍ سابقةٍ إلَى منطقَةِ النِّيلِ، بغضِّ النَّظَرِ عنْ تأثيرِ الشِّيعَةِ الفاطميِّينَ.

وفِي هذَا الشَّأنِ، يَجِدُ عادلُ سِيدَارُوس أنَّهُ أمرٌ مهمٌّ أنَّ العصرَ الذَّهبيَّ للأدَبِ العربيِّ القبطِيِّ فِي القرنَينِ الثَّالثِ عشرَ والرَّابعِ عشرَ كانَ فِي الوقتِ الَّذِي أصبحَتْ فيهِ مصرُ مركزًا جديدًا للإسلامِ، وأنَّ إنتَاجَهَا الأدبيَّ فِي ذلكَ الوقتِ كانَ ذَا صبغَةٍ قوميَّةٍ ستسُودُ للأبَدِ - علَى الرَّغمِ منَ الاقتبَاسِ منْ نتاجِ ميزُوبُوتَاميَا ومنطقةِ الهلالِ الخصِيبِ، وعلَى الرَّغمِ منْ أنَّهَا كانَتْ فِي ذلكَ الوقتِ تحتَ سيطرَةِ المغولِ. وَتُظْهِرُ الدِّراساتُ العديدَةُ الَّتِي نشرَهَا حَولَ هذهِ الحقبَةِ المزدهرَةِ اتِّساعَ نطاقِ وعُمقِ النَّشاطِ الأدبيِّ والفكريِّ للأقباطِ فِي قلبِ الحضَارةِ العربيَّةِ فِي هذَا الوقتِ؛ ومنهَا: فقهُ اللُّغةِ العربيَّةِ القبطيَّةِ (قواعدُ ومعاجمُ)، دراساتٌ إنجيليَّةٌ للسِّمَاتِ التَّاريخيَّةِ والفِيلُولُوجِيَّةِ، دراسةُ وترجمةُ نصوصٍ قديمَةٍ (بَابويَّةٍ وكلاسيكيَّةٍ)، لاهُوت روحانيٌّ وتأمُّليٌّ، تصنيفُ تنظيمٍ معياريٍ، الجغرافيَا وعلمُ التَّأريخِ، موسُوعاتٌ، وغيرُهَا منَ الأعمالِ.

وتُعَدُّ أحدُ أهمِّ السِّماتِ المميِّزَةِ للأدبِ العربيِّ القبطيِّ فِي هذَا العصرِ الذَّهبيِّ هِيَ عالميَّةُ مصادِرِهِ وآفاقِهِ، وهِيَ ثمرةُ معرفةٍ واسعةٍ بمورُوثَاتٍ دينيَّةٍ مختلفَةٍ مسيحيَّةٍ ومسلمةٍ دونَ إغفالِ قَدْرٍ ضَئِيلٍ منَ الميراثِ اليهودِيِّ. ولكنَّ هذَا أصبحَ ممكنًا فقَطْ بفضلِ انتشَارِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتِي لعبَتْ فِي العصُورِ الوُسطىَ دورَ الوسِيطِ الَّذِي لَعِبتْهُ اليونانيَّةُ فِي العصورِ القديمَةِ بينَ مجتمعاتٍ مسيحيَّةٍ منْ أصولٍ عِرْقِيَّةٍ لُغويَّةٍ مختلفَةٍ.

وهكذَا تُثبِتُ أعمالُ عادِل سِيدارُوس أنَّهُ كانتْ هناكَ فتراتٌ رائعةٌ منَ التَّكافُلِ بينَ الإسلامِ والمسيحيَّةِ فِي مصرَ فِي الماضِي. ويُظهِرُ بحثُهُ النِّطاقَ الواسِعَ للتَّكامُلِ والتَّبادُلِ الثَّقافيِّ فِي الحالةِ المصريَّةِ. وإلَى نفسِ هذهِ الفترةِ تعُودُ النَّهضةُ السِّيريانيَّةُ المعروفَةُ فِي شمالِ مِيزُوبُوتَاميَا والَّتِي كانتْ تتَّسِمُ بالازدواجيَّةِ اللُّغويَّةِ علَى عكسِ الحالَةِ المصريَّةِ. ويؤكِّدُ البروفسُورُ سِيدارُوسُ التَّشابُهَ معَ النَّهضةِ اليهوديَّةِ فِي الأندلسِ المسلمةِ فِي القرنَينِ العاشرِ والثَّانِي عشرَ وخاصَّةً فِي قُرْطبَةَ، والَّتِي سمحَتْ بعودَةِ لغةِ الإنجيلِ واستخدامِهَا كلغةٍ للثَّقافَةِ العالميَّةِ والَّتِي لَايزالُ تأثيرُهَا حتَّى اليومِ. وبالعودَةِ إلَى النَّهضةِ القبطيَّةِ بالعصورِ الوسطَى فِي ظلِّ اللُّغةِ والثَّقافةِ العربيَّةِ، منَ الجدِيرِ بالملاحظةِ أنَّ الأبطالَ الأساسيِّينَ كانُوا كبارَ المسؤولِينَ بالدَّولةِ والَّذينَ عادةً مَا يكونُونَ رجالَ دينٍ ويكونُونَ سلالاتٍ عائليَّةً تتمتَّعُ بهيبَةٍ كبيرةٍ.

وهناكَ مؤلِّفٌ آخرُ منْ أصلٍ مصريٍّ يعملُ فِي نفسِ المجالِ وهُوَ الأبُ سميرُ خلِيل سمِير الَّذِي أتمَّ عامَهُ الثَّمانينَ. وهُوَ مؤلِّفُ أكثرَ منْ ٦٠ كتابًا وأكثرَ منْ ١٥٠٠ مقالٍ (بالفرنسيَّةِ والإنجليزيَّةِ والإيطاليَّةِ والعربيَّةِ والألمانيَّةِ)، ويُعَدُّ منْ أفضلِ المُتَخصِّصِينَ فِي دراسَةِ التُّراثِ العربيِّ المسيحيِّ والعلاقاتِ بينَ المسلمِينَ والمسيحيِّينَ. وتجذِبُ خبرتُهُ فِي هذَا المجالِ اهتمامًا مستمرًّا منْ أسقفيَّةِ ((البحرِ المقدَّسِ))، وهُوَ مستشارٌ للشُّؤُونِ الإسلاميَّةِ مقرَّبٌ منَ البَابَا. وتؤكِّدُ كلُّ أنشطَةِ الأبِ سمِير العلميَّةِ علَى أنَّ تميُّزَ التُّراثِ العربيِّ المسيحيِّ كانَ يُوَاجِهُ تحدِيَّاتٍ بشكلٍ مستمرٍّ بسببِ الإسلامِ، ولذلكَ كانَ لا بُدَّ منَ التَّفاعُلِ بذكاءٍ معَ المسلمِينَ.

وهذَا المجالُ لَا يزالُ فِي طورِ الاستكشَافِ، إلَّا أنَّهُ يجذبُ المزيدَ والمزيدَ منَ العلمَاءِ. ويرَى الأبُ سميرُ أنَّ المهمَّةَ الأساسيَّةَ للكنائسِ المسيحيَّةِ العربيَّةِ هيَ الحوارُ معَ الإسلامِ اليومَ أكثرَ مِنْ ذِي قَبْلِ، وأنَّ التُّراثَ القديمَ يعينُنَا علَى تعميقِ هذهِ الضَّرورةِ. وفِي ظلِّ الظُّروفِ السِّياسيَّةِ للعصرِ، كانَ علَى المسيحيِّينَ أنْ يعرضُوا العقيدَةَ المسيحيَّةَ بالمنطِقِ، وأنْ يستعينُوا بالقرآنِ والفكرِ الإسلاميِّ، وهناكَ روائعُ منَ الأعمالِ منْ بينِ النُّصوصِ القديمَةِ لرجالِ الدِّينِ والفلاسفَةِ العرَبِ قديمًا -مسلمِينَ ومسيحيِّينَ- قامَ بنشرِهَا الأبُ سميرُ.

وتُظْهِرُ هذهِ الأعمالُ إلَى أيِّ مدًى كانَتْ ثقافةُ المُنَاظرَاتِ فِي العالَمِ العربيِّ رائِجَةً ومثمرَةً. وهُوَ يُجَادِلُ بشدَّةٍ لإحيَاءِ هذَا الكنزِ فِي العالَمِ العربيِّ المعاصِرِ ولاسترجَاعِ هذَا المناخِ منَ التَّفتُّحِ الفكريِّ. وقدِ اكتشَفَ خلفاءُ العصرِ العباسيِّ فِي بغدَادَ التُّرَاثَ اليونانيَّ كلَّهُ شيئًا فشيئًا بفضلِ المسيحيِّينَ السِّيريانيِّينَ الَّذِينَ عاشُواْ معهُمْ، وقدْ طلبُواْ منهُمْ أنْ يقُومُوا بترجمَةِ التراثِ كلِّهِ (فلسفةٍ، وطبٍ، ورياضةٍ وغيرِهَا) منَ السِّيريانيَّةِ إلَى العربيَّةِ. وفِي بدايَةِ الأمرِ، كانَ معظمُ الخُبَرَاءِ فِي هذَا المجَالِ منَ المسيحيِّينَ، إلَّا أنَّهُ منذُ النِّصفِ الثَّانِي منَ القرنِ العاشِرِ تفَوَّقَ عليهِمْ تلاميذُهُمْ منَ المسلمِينَ ممَّا أدَّى إلَى خَلْقِ مُنَاخٍ منَ التَّفتُّحِ الاستثنائِيِّ وإلَى عشرَاتِ المناظرَاتِ بينَ المسيحيِّينَ والمسلمِينَ والَّتِي كانَتْ عادَةً فِي حَضْرَةِ الخليفَةِ أوْ أحدِ الأمرَاءِ؛ حيثُ يتمُّ مناقشةُ قضايَا دينيَّةٍ. وكانَ لديهِمْ جميعًا قاعدةٌ عامَّةٌ؛ وهِيَ: الفكرُ اليونانيُّ. هذَا هُوَ العصرُ الأعظمُ للفكرِ العربيِّ (المسلمِ والمسيحيِّ).

وبعدَ ذلكَ تُرجِمَتْ بعضُ هذهِ النُّصُوصِ منَ العربيَّةِ إلَى اللَّاتينيَّةِ، وأدَّتْ إلَى مناخٍ جديدٍ منذُ بدايةِ القرنِ التَّاسعِ عشرَ. وقدْ حدثَتْ نفسُ الظَّاهرةِ فِي القرنِ التَّاسعِ عشرَ فِي ظلِّ تأثيرِ اللُّغةِ الفرنسيَّةِ (أعضاءِ حملةِ بونابَرْت) حتَّى أنَّ محمَّد علِيّ قامَ بإرسَالِ معظمِ المسلمِينَ الموهوبِينَ إلَى باريسَ وطلَبَ منهُمْ أنْ يكتبُوا باللُّغةِ العربيَّةِ كلَّ مَا تعلَّمُوهُ فِي فرنسَا. وأدَّى كلُّ هذَا إلَى إثارةِ حركةٍ منَ التَّفتُّحِ استمرَّتْ تقريبًا حتَّى عامِ ١٩٧٠م.

وهناكَ عالِمٌ ثالثٌ مسيحيٌّ شرقيٌّ أوَدُّ أنْ أقدِّمَهُ حتَّى أُنهِيَ محاضَرَتِي، ألَا وهُوَ زمِيلِي: سميرُ أربَاشِي Samir Arbache - الأستاذُ بكليَّةِ اللَّاهوتِ بالجامعَةِ الكاثوليكيَّةِ فِي لِيل Lill. وُلِدَ سميرُ فِي سوريَا فِي يبرُودَ (Yabrud)، وهُوَ ينتمِي إلَى كنيسةِ الرُّومِ الملكيِّينَ الكاثوليكِ اليونانيَّةِ، ومجالُ بحثِهِ هُوَ ميلادُ الأدبِ العربيِّ المسيحيِّ. وكمَا تعلمُونَ، فقدْ كانَتِ المسيحيَّةُ مُعْتَرَفًا بهَا فِي المناطقِ العربيَّةِ منذُ القرنِ الرَّابعِ، وكانَتْ هناكَ مجتمعَاتٌ مسيحيَّةٌ فِي اليمَنِ وقطرِ والخليجِ الفارسيِّ وبينَ القبائلِ العرَبِ بجنوبِ سوريَا وبينَ الغسَّانيِّينَ وجنوبِ العِراقِ واللَّخمِيِّينَ. وكانتِ الجزيرةُ العربيَّةُ فِي حوالِي عامِ ٦٠٠م محتلَّةً فِي الجنوبِ منَ الإمبراطوريَّةِ السَّاسانيَّةِ الفارسيَّةِ. وفِي منطقةِ نجران بالجنوبِ الغربيِّ كانتِ اليمنُ محتلَّةً جزئيًّا منَ الجيشِ الأثيوبِيِّ، وكانتْ تحتَ السَّيطرَةِ المسيحيَّةِ. كمَا كانَ هناكَ عربٌ يعتَنِقُونَ اليهوديَّةَ فِي اليمنِ ووسطِ الجزيرَةِ وشمالِهَا، إلَّا أنَّ العربَ فِي ذلكَ الوقتِ مهمَا كانَتْ عقائدُهُم كانُوا يشكِّلُونَ فِي الغَالبِ قبائلَ بَدَويَّةً انتشَرَتْ فِي إقليمٍ شَمِلَ كلَّ الجزيرةِ العربيَّةِ وصحراءِ سوريَا حتَّى الحدودِ معَ أناتوليَا. وكانتِ اليمنُ بالطَّبعِ تتميَّزُ بالمدنيَّةِ، ولكنْ كانتْ هناكَ أيضًا بعضُ القبائلِ المستقرَّةِ غيرِ المُرْتَحِلَةِ، ومارسَتِ الزِّراعةَ والتِّجارةَ. ولكنَّ ثقافةَ العربِ، سواءٌ كانُوا بدوًا أمْ قبائلَ مستقرَّةً، شفهيَّةٌ؛ حيثُ إنَّهُمْ كانُوا يستخدمُونَ الكتابَةَ بشكلٍ هامشِيٍّ، وكانُوا لَا يشعرُونَ بالحاجَةِ إلَى كتابةِ تراثِهِمْ التَّاريخيِّ أوِ الشِّعريِّ أوِ المَلْحَمِيِّ. وعليهِ يكونُ منَ المفهومِ أنَّهُ علَى الرَّغمِ منْ وجودِ عدَدٍ جديرٍ بالاعتبَارِ منَ الكِتَابَاتِ باللُّغةِ العربيَّةِ، لمْ يكنْ هناكَ أيُّ عملٍ أدبيٍّ باللُّغةِ العربيَّةِ حتَّى مُنْتَصَفِ القرنِ السَّابعِ.

يُعَدُّ الفتحُ العربيُّ لمناطقَ شاسعَةٍ منْ سوريَا وميزُوبُوتُوميَا ومصرَ وفَارِس، وتأسيسُ إمبراطوريَّةٍ فِي دِمَشْق عامَ ٦٦١م، وتطوُّرُ الدِّينِ الإسلَاميِّ النَّاشِئِ، كلُّهَا عواملُ أسهمَتْ فِي حُدُوثِ تغيُّرٍ جِذْرِيٍّ فِي تكوِينِ المنطقةِ.

وفِي ظلِّ هذَا المناخِ الغَنِيِّ بالتَّغيُّرَاتِ الثَّقافيَّةِ الَّتِي شهدنَاهَا منذُ منتصفِ القرنِ السَّابعِ، حدَثَ انحسَارٌ فِي الثَّقافةِ الشَّفهيَّةِ ونموٌّ متصاعِدٌ للأدبِ المكتُوبِ، فلَمْ تكنْ الإمبراطوريَّةُ المسلمةُ راضيَةً عنِ الأبجديَّةِ البسيطةِ للتَّواصُلِ والحكمِ، كمَا كانَ علَى أتبَاعِ الدِّينِ النَّاشِئِ أنْ يحفظُوا القرآنَ كتَابَهُمُ المقدَّسَ بإخلَاصٍ.

وقدْ أدَّى هذَانِ السَّببَانِ بالحكَّامِ إلَى أنْ يَتَبَنَّوا أبجديَّةً تتوافَقُ معَ أهدَافِهِمْ المنشودَةِ. ولكنَّ أثناءَ الفترَةِ الانتقاليَّةِ كانتْ هناكَ محاولَاتٌ لكتابةِ اللُّغةِ العربيَّةِ بحروفٍ يونانيَّةٍ فِي سوريَا أو بحروفِ اللُّغةِ النّبطيَّةِ فِي الجزيرةِ العربيَّةِ. ويمكنُنَا القولُ: إنَّ أبجديَّةَ اللُّغةِ العربيَّةِ الكلاسيكيَّةِ مشتقَّةٌ منْ عمليَّةِ مزْجِ الأبجديَّتينِ النّبطيَّةِ والسِّيريانيَّةِ. وطبقًا للبرُوفسُور أربَاشِي، فإنَّ أوَّلَ نصوصٍ مسيحيَّةٍ باللُّغةِ العربيَّةِ ظهرتْ فِي نفسِ الوقتِ الَّذِي تشكَّلَتْ فيهِ الأبجديَّةُ العربيَّةُ، أيْ فِي منتصَفِ القرنِ السَّابعِ الميلاديِّ. وقدْ قرَّرَ المسلمونَ كتابةَ القرآنِ، وبدأَ العربُ المسيحيُّونَ فِي ترجمةِ نصوصِ الإنجيلِ إلَى العربيَّةِ. وعلاوةٌ علَى ذلكَ، فكثيرًا مَا يوضِّحُ النَّصَ القرآنيَّ السِّياقُ الاجتماعيُّ-الثَّقافيُّ الَّذِي نزَلَ فيهِ. وينعكسُ وجودُ اليهودِ والمسيحيِّينَ فِي أنحاءٍ مختلفَةٍ منَ الجزيرةِ العربيَّةِ عليهَا بصورَةٍ لَا يمكنُ إنكارُهَا.

ومنَ الواضِحِ أنَّ الثَّقافةَ الإنجيليَّةَ بالمعنَى الواسِعِ قدْ تغلغلَتْ فِي المجتمعِ الَّذِي ظهرَ فيهِ القرآنُ. وهكذَا يُشِيْرُ القرآنُ إلَى عوالَمَ ثقافيَّةٍ غنيَّةٍ، فهوَ يتَّخذُ موقفًا فيمَا يتعلَّقُ باليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ ويستحضرُ المانيشيِّينَ والمازيديِّينَ وحتَّى الغنوصيِّينَ، ناهيكَ عنِ الملحدِينَ. ويعودُ أوَّلُ ظهورٍ لنصوصٍ إنجيليَّةٍ باللُّغةِ العربيَّةِ إلَى القرنِ الثَّامنِ. ومنَ المحتمَلِ أنَّ أوَّلَ وثائقَ تمَّتْ ترجمتُهَا فِي القرنِ السَّابعِ قدْ فُقِدَتْ. ويتردَّدُ أنَّ البطريركَ اليعقوبَ يحُون الثَّالثَ (٦٣١-٦٤٥م) بطريركَ أنطاكيةَ قدْ ترجَمَ الأناجيلَ السِّريانيَّةَ إلَى اللُّغةِ العربيَّةِ بِنَاءً علَى طلَبِ أميرِ المؤمنِينَ عمرو بنِ سعيدٍ. وقدْ وَرَدَ ذِكْرُ مقتطَفَاتٍ منْ هذهِ النُّسخَةِ فِي كتابٍ لعَلِيِّ بنِ ربن الطَّبَرِيِّ (المتوفَّى ٨٦١ م) . وبِنَاءً علَى الأقاليمِ والمناطقِ اللُّغويَّةِ كانتِ النُّصوصُ الإنجيليَّةُ يتمُّ ترجمتُهَا منَ اليونانيَّةِ (سوريَا وفلسطينَ) ومنَ السِّيريانيَّةِ (سوريَا وميزوبوتَاميَا) ومنَ القبطيَّةِ (مصرَ) ومنَ اللَّاتينيَّةِ (أسبانيَا الأندلسيَّةِ).

وأَقْدَمُ نصٍّ منَ الإنجيلِ باللُّغةِ العربيَّةِ كاملًا ومؤرَّخًا هُوَ المخطوطَةُ العربيَّةُ السِّينَائِيَّةُ ٧٢ (٨٩٧)؛ وهِيَ جزءٌ منْ تراثِ مخطوطاتٍ تعُودُ إلَى القرنِ

الثَّامنِ. وهناكَ نسخةٌ منَ الإنجيلِ تُرجِمَتْ منَ السَّبعينيَّةِ اليونانيَّةِ فِي عصرِ الخليفةِ المأمونِ (٨١٣-٨٣٣م)، وقدْ ترجَمَهَا حنينُ بن إسحَاقَ -مترجِمُ بيتِ الحِكْمَةِ المشهورُ، وبَقِيَ منهَا مقتطَفَاتٌ فقطْ. وهكذَا مرَّتِ النُّصوصُ الإنجيليَّةُ بتنوُّعٍ غنِيٍّ فِي المجتمعَاتِ المسيحيَّةِ فِي الإمبراطوريَّةِ العباسيَّةِ.
وفِي حوالِي ١٢٥٠م قامَ ابنُ الآصالِ بترجمةِ العهدِ الجديدِ بنصوصِهِ السِّيريانيَّةِ واليونانيَّةِ والقبطيَّةِ محافظًا علَى سِمَةِ التَّنوُّعِ. وتُعَدُّ هذهِ التَّرجمةُ مَا يُطلَقُ عليهِ النُّسخَةُ اللَّاتينيَّةُ للإنجيلِ عندَ العربِ.
بالإضافةِ إلَى نصوصِ الإنجيلِ، يشتمِلُ مَا يُطلَقُ عليهِ الأدبُ العربيُّ المسيحيُّ علَى أسفَارِ العهدَينِ واللِّيتورجيَا وسِيَرِ القِدِّيسِينَ وكتَابَاتٍ تاريخيَّةٍ وقوانينَ كَنَسِيَّةٍ وكذلكَ مقالاتٌ عنِ اللَّاهوتِ والرّوحانيَّاتِ. وبعضُ الكتبِ ظلَّتْ بنصِّهَا العربيِّ فقطْ. وبهذَا المعنَى تَكُونُ المجتمعَاتُ المسيحيَّةُ العربيَّةُ أوِ المعرَّبَةُ هيَ الأُولَى فِي تاريخِ المسيحيَّةِ الَّتِي أعادَتْ تعريفَ نفسِهَا فِي مواجهةِ الدِّينِ الجديدِ والمشاركةِ فِي نهضةِ الحضارةِ العربيَّةِ.
سميرُ أرباشِي هُوَ جزءٌ منْ اتِّجاهٍ علمِيٍّ كاملٍ. وقدْ ظهرَ اهتمامٌ متجدِّدٌ منَ الباحثِينَ علَى مدَى ثلاثةِ عقودٍ لدراسَةِ هذَا التُّراثِ العربيِّ المسيحيِّ الكبيرِ فِي أرضِ الإسلامِ. وتؤكِّدُ أعمالُهُ أنَّ التَّجربَةَ التَّاريخيَّةَ للمسيحيَّةِ العربيَّةِ تَتَّسِمُ بنوعٍ منَ الضَّعفِ، فهؤلاءِ المسيحيُّونَ لمْ يكنْ لهُمْ دولةٌ خاصَّةٌ بهِمْ كمَا هوَ الحالُ فِي أثيوبيَا وأرمينيَا وجورجيَا واليونَانِ. إنَّها دائمًا مسيحيَّةٌ فِي ظلِّ نفوذٍ غيرِ مسيحيٍّ. وحتَّى قبلَ أنْ تتكامَلَ هذهِ المجتمعاتُ معَ العالَمِ الإسلاميِّ فِي القرنِ السَّابعِ، فإنَّهَا كانتْ تحتَ سيطَرَةِ الرُّومِ والبيزنطيِّينَ. ونحنُ نعلمُ أنَّ العقيدَةَ المسيحيَّةَ ليسَتْ مرتبطَةً بأرضٍ أوْ لغةٍ أوْ حتَّى علَى الأقلِّ بإمبراطوريَّةٍ. وقدْ شكَّلَ أقباطُ مصرَ والسُّريانيِّينَ فِي سوريَا والعراقِ وفارسِ أساسَ الحضارَةِ العربيَّةِ خلالَ الألفيَّةِ الأُولَى. وفِي المجالِ الدِّينيِّ، بجانبِ تَرْجَمَاتِ النُّصوصِ المقدَّسَةِ واللِّيتورجيَّةِ، فقدْ عَرَفُوا كيفَ يحوِّلُونَ لغةً مسيحيَّةً جديدةً استجابَةً لتوقُّعَاتِ المجتمعِ الإسلاميِّ الَّذِي أعانُوهُ علَى التَّأسيسِ والازدهَارِ.
وبسببِ التُّراثِ الغربيِّ الَّذِي هاجَمَ الإسلامَ لوقتٍ طويلٍ وأدَّى إلَى نموّ رأيٍ سلبِيٍّ فيمَا يخُصُّ العلاقَةَ بينَ المسيحيِّينَ والمسلمينَ فِي الشَّرقِ، فإنَّ العلماءَ المسيحيِّينَ الثَّلاثَةَ: عادِل سِيدارُوس، وسمِير خلِيل سمِير، وسمِير أرباشِي - الَّذينَ يعملُونَ فِي الشَّتَاتِ، لديهِمْ فرصةٌ عظيمةٌ لإظهَارِ أنَّهُ كانَ هناكَ وقتٌ

اشترَكَ فيهِ المسلمُونَ والمسيحيُّونَ واليهودُ فِي بِنَاءِ ثقافةٍ عربيَّةٍ مُشِعَّةٍ فِي دمَشق وبغدَاد والقاهرَةِ، وحينَهَا رحَّبتِ اللُّغةُ العربيَّةُ تحتَ مظَلَّةِ الإسلامِ بالتُّراثِ اليهوديِّ وكذلِكَ بالتُّراثِ المسيحيِّ المتنوِّعِ بينَ: الإنجيلِيِّ واللّيتورجِيِّ والأبويِّ واللَّاهُوتيِّ، ناهيكَ عنْ فلسفَةِ وعلومِ اليونانيِّينَ وحِكْمَةِ الفُرْسِ والهنُودِ.

ويقترحُ هذَا البحثُ أنَّ هذَا الاستِيعابَ منَ الإسلامِ واللُّغةِ العربيَّةِ بحاجَةٍ إلَى الإحياءِ. هلْ هذِهِ مجرَّدُ أُمْنِيَةٍ فِي ظلِّ الظُّرُوفِ المأساويَّةِ الانتحاريَّةِ لسكَّانِ العراقِ وسوريَا ومصرَ؟ وَلَئِنْ سَادَ الموتُ وانتَصَرَ، فإنَّ الذَّاكِرَةَ المشتركةَ للمسلمِينَ والمسيحيِّينَ فِي الشَّرقِ تمثِّلُ عقيدةً راسخةً فِي الحيَاةِ واحترامًا لعقائِدِ الجميعِ.

هؤلاءِ العلمَاءُ يُوضِّحُونَ أنَّ المسيحيِّينَ الشَّرقيِّينَ لَا يمكنُ اتِّخَاذُهُمْ ذَرِيعَةً لظاهِرَةِ الخوفِ منَ الإسلامِ (الإسلَامُوفوبيَا)، بَلْ علَى العكسِ منْ ذلِكَ فإنَّ تاريخَهُم وَخاصَّةً الثقافِيَّ يوضِّحُ العدِيدَ منَ الالتقَاءَاتِ الدِّينيَّةِ بينَ الإسلَامِ والمسيحيَّةِ، وكذلِكَ إمكانِيَّةُ تعايُشٍ متناغِمٍ بينَ الأديَانِ المتعدِّدَةِ فِي الشَّرقِ الأوسَطِ.

***